عظة عيد رقاد والدة الإله

١٥ - ٨ - ٢٠٠٦

الإنجيل: لو ١٠ :٣٨-٤٢، ١١: ٢٧-٢٨

الرسالة: في ٢ :٥-١١

المجد للآب والابن والروح القدس، الآن وكلَّ آنٍ والى دهر الداهرين، آمين.

من صفات الربِّ يسوع أنه وضيعٌ ومتواضعٌ وكذلك كانت أولى تلاميذِه العذراءُ مريم التي اقتبست هذه الصفات مما تعلَّمتْه منه حين كانت تتأمل في حياته، في تجسدِه، في تنازلِه. وانطبعت هذه الصفاتُ القدّوسة الإلـهية في قلبِها وفي فكرِها وفي حياتها. وامتلكت العذراءُ مريم هذا الـهدوء والصفاء الذي يصبو إليه كلُّ مجاهدٍ للقداسة.

ففي حياتِنا المسيحية أيها الأحباء، في صبِانا ينبغي أن نتدرَّبَ على التنقية. كيف نتنقى من خطايانا، كيف لا نعود ننفعل تجاه أهوائنا وضعفاتِنا ورغباتنا، كيف يمكننا أن نترفَّع فوق هذا الضغط الذي يولِّده فينا الحقد والإنفعالُ في عواطفنا. فنحن كثيرًا ما لا نغفرْ لأننا نتأثَّرُ بحقدنا. نحن كثيرًا ما نذكر السيئات، ولا نذكر الصالحات، لأننا نَدين. نحن كثيرًا ما نذكر الإهانةَ، التي تأتينا من الإنسان، ولا نذكر أنه صورة الله، فنحتقرُه عوض أن نكرِّمه، كما علَّم السيد في الإنجيل، ما تريد أن يعمله لك الناس بادر أنت واصنعه معهم.

نتعلَّم كما قلت في صبانا كيف نتنقَّى من هذه المؤثرات الخاطئة والتي تطبع حياتنا وتجعلنا أحياناً كثيرة شيوخًا بلا عقل. وإلا فلماذا يتخاصمُ معظمكم مع أهله، الذين من المفترض أنهم يدرِّبونكم. ولكنهم يتنافرون معكم في الرأي ولا يفهمون صباكم وشبابكم وذلك أنهم ينقصُهم كثيرًا من التدريب والتنقية. وعندما لا نكون أنقياء، لا نستطيع أن نميِّز، فننفعل. وبعد التنقية التي تصير بالإعتراف المستمرِّ، بالتوبة، حيث نرجعُ كلَّ يومٍ إلى ذواتِنا ونخلو مع الله، نراجعُ أفكارَنا ونحاسب ذواتنا، حتى نتنقى مما تصرفناه من الخطأ. ويقول الربُّ في الكتاب المقدس: "لا تغرب الشمس على غضبكم"(راجع أفسس ٤: ٢٦). لا تسمح بأن يكون مشكلٌ بينك وبين الآخر إلى الغد بل أنهه اليوم، وتصالحا. وبذلك يسلمُ قلبك وتصفو وتبتدئ تنمو في محبة المسيح أكثر فأكثر. ولا تعود فيما بعد تنفعلُ أي تتجاوب مع أهوائك.

وبعد هذه التنقية تأتي مرحلة الإستنارة حيث يمتلك الفكر قداسةً ونورًا يوجِّهُهُ نحو الخير. فهنالك إنسانٌ إذا سألته في أمرٍ ما يثور وينفعل ويشدُّك إلى الشرِّ. وإنسانٌ آخر في نفس

الموضوع يمكنه أن يهدِّئ روعك ويجعلك تهدأ وتسلم إذْ تختارُ الطريق الأفضل. ذلك أن فكرَهُ بات نيرًا مملوءًا من حكمة الله فلا يعود يشير عليه أو عليك بالإساءة أو بشيءٍ من العنف.

ونحن ينقصنا الكثير من هؤلاء الحكماء المستنيرين الذين بهذا الجهد يقدِّمون فكرَ الله للناس. كما حصل مع القديس إسحق أسقف نينوى وهو ناسكٌ قدّيسٌ اختاره الناس ليكون مِطرانًا على نينوى. فجاءه اثنان مختصمان وبعد أن سمعَ لهما وبرويةٍ وحكمةٍ إلهية أجابهما مما يقرأ في الإنجيل. فقال أحدهما هل جئنا لنسمعَ رأيَ الإنجيل؟ نحن نريدُ أهواءنا، ماذا تحدثنا أنت. فقال: أنسحبُ وأرجع إلى برِّيتي فالخنازيرُ التي في البرية أفضلُ كثيرًا من البشر الذين ليس عندهم فكرُ الله. وسمعنا اليوم الرسول يقول: امتلكوا فكرَ المسيح لأنه متواضع. فكرُه يتنازل إلينا لا يعلو ولا يتفاخر بل يتواضع هذا التواضع الذي يكلِّفه الموت على الصليب، ليس مجرد تواضع شكليّ. والفضيلة تحتاج إلى موت. أولاً يموت الشرُّ فيك. وبعد ذلك تموت أنانيتك ومتى تطهَّرت من هذه وتلك تصبح صافياً منقّى تستقبل نور المسيح وتأتمر بفكره وتفهم ماذا يقول. كثير من الناس يقرأون في الإنجيل ولا يفهمون أو هم يفهمون على أهوائهم ولذلك لا يعملون كما يطلب المسيح.

وبعد الإستنارة تأتي مرحلةٌ عظيمةٌ هي التقدُّس. حيث يتَّحِد الإنسان كلّياً بالله ولا تعود فيه فكرةٌ ما أرضية ولا يعود فيه انشدادٌ إلى الخطيئة بل يصبح بلا انفعالٍ. كما كانت البتول مريم. نسمع رومانوسَ المرنم يشدو في المديح قائلاً لها: افرحي يا حبًّا يغلب كلَّ شوق. قد امتلكتِ حباً للمسيح جعلتِ معه كلَّ شيءٍ مغلوباً له. لم يكن حبٌ في الأرض يلفت انتباهك أكثر من حب المسيح. والربُّ علَّمَ إن أحب أحدٌ امرأته أو أولاده أو حقولَه أو أباه أو أمه أكثر مني لا يستحقُّني. ليس لأنه يريد بأنانيةٍ أن يستأثر بنا بل لأنه يعرف متى كان في القلب حبًّان لا يمكن للإنسان أن يثبت فإنه يتزعزع.

هكذا كان قلب البتول مريم. حبُّها ليسوع غلب كلَّ حبٍ آخر. هذا لا يعني أنها لم تكن تحب. قد أحبت التلاميذ والتلاميذ أحبّوها ليس فقط لأنها أمُّ الرب. بل لشخصها الذي كما سمعنا اليوم هذه المرأة تقول: طوبى لمن ولدتْكَ وأرضعتك. كانت شخصيتُها مميزة ومحبَّة. في هدوئها وصفائها جعلت رؤساء الكنيسة، أي التلاميذ الأوائل ينسكبون أمام تواضعها أمام شخصيتها المميزة ويتعلَّمون منها، من صمتها، من هدوء نفسها كانوا يستشفُّون هذا الحضور الإلهيّ الذي ملأ قلبها وكيانها إذ حملت المسيح في أحشائها وولدته طفلاً وربَّته حتى قدَّمته

للآب خادماً مطيعاً حتى الموت على الصليب. كما كانت هي قد ماتت قبلاً عن أي حبٍ آخر سوى حبِّ الله.

نحن أيها الأحباء يُعوِزُونا أن نتنقَّى وأن نتعلَّم من العذراء مريم كلَّ يوم، دروساً بهذا التواضع، وبهذا النقاء، وبهذا الصفاء الذي اقتبلت به نور الإله في أحشائها وفي كيانها. كيف لم تقرأ في الإنجيل لأنه لم يكن قد كُتب بعدُ في عهدِها، لكنها كانت تحفظُه في قلبها وتتأمل في فكرها كلَّ أحكامِ السيد، تتعلَّم منه، من كلِّ تصرفٍ وتحفظ ذلك في قلبها كما يقول لوقا الإنجيليّ. لأنها كانت تفكرُ دائماً بهذا السرِّ الخلاصيّ الذي انسكبَ بين يديها.

هل نستطيع نحن في كلِّ يومٍ فيما نصلي أن نفكرَ بصفات هذه البتول العظيمة التي كثيرًا ما نذكرها في صلواتنا؟ هل نتعلَّم منها كيف كانت صامتةً هادئةً؟ تعرف الكثير لكنها لا تتكلَّم ليس بُخلاً بل لأنها تعرف أن الكلام وحده لا ينفع بل التصرف هو الأفضل. وأنتم تشاهدون بعيونكم أننا موجودون في كونٍ موبوء. فكلُّ زعماء الكون أناسٌ بلا رأس، بلا فكر. ليس عندهم فكر المسيح ليس عندهم حبه وحنانه. عندهم الوحشية عندهم الأنانية الكاسرة عندهم كلُّ غضب كلُّ حقد وتسلُّط. ليس فيهم نقاء. يَصْدُقُ فيهم قول المزامير: "لا تتَّكلوا على الرؤساء وعلى بني البشر الذين ليس عندهم خلاصٌ. تخرجُ روحُه فيعودُ إلى ترابِه. في ذلك اليومِ تهلكُ كلُّ أفكاره"(مزمور ١٤٦: ٣-٤). إن كانت عنده أفكار. فإنهم يجترُّون فكرَ الشرير الذي يجعل الوباء في عقولهم وقلوبهم ويجعلهم متقوقعين في أنانيتهم لا يعرفون كيف يفيدون الناس. ولهذا بلدٌ كبلدنا يُدمَّرُ ويُحطم وهو من أجمل بلدان العالم. وكأن الله خصّه بنعمةٍ فائقةٍ، وجعله مثالاً ينظرُ إليه الكلُّ كيف يشاهدون جمالَ خليقة الله وصنعه البهيّ. وكيف يمكن أن يتحوَّل الإنسان البشع بخطاياه، حين يتوب ويتنقى كيف يتحول إلى هذا الجمال الذي يصفه في خليقته أنه كان حسناً. وحتى يستحسن الله فإنه حسنٌ جدًا. ونسمع أيضاً في المزامير قولةً لداودَ النبيّ نحن نفسرُّها عن والدة الإله: "اسمعي يا بنتُ وانظري وأميلي أذنك وانسي شعبك وبيت أبيك فيشتهي الملك حسنك"(مز ٤٤: ١٠-١١)، "جمال ابنة الملك من داخل"(راجع مز ٤٤: ١٣) ليس في البُهرج والزينة الخارجية وال Make up لكنه من داخل من صفاتها من ميزاتها الخاصة، من شخصيتِها المتقدِّسة. "جمال ابنة الملك من داخل". هكذا يقول في سفر الأناشيد: "من هذه الطالعة من لبنان"، حيث لم يجد أجملَ منه مكاناً يُخرجُ البتولَ منه. وكأنها عروسٌ بهية تَخرجُ من خِدرها من زينتها. تتهيأ للقاء عريسها العظيم.

ويخاطبها: "اسمعي يا بنتُ". وعندما نقول "اسمع" نقصد أن أطِعْ. الأمُّ تقول لابنها "اسمع الكلمة" يعني أطع. ليس أنك تسمع كما تسمع زمورًا عن الطريق، ولا يهمك شيء. اسمعي يا بنت، أطيعي وانظري التفتي وانتبهي وتأكدي عندما تفتحين عيونك لكي تعرفي أكثر فأكثر وانسَيْ شعبك وبيت أبيك. انسَيْ تراثك الإنساني والضعفات والمشاكل، فيشتهي الملك حسنك، لأنه ينظر إلى قلبك وأنت تَنْشدِّين إليه فيما تفتحين عيونك وفيما تسمعين بأذنَيْك صوتَه الشهيّ الذي يدعوك لتشاركيه، فأطيعي. وعند ذاك في هذه الطاعة يمكنكِ أن تتقدَّسي، أن تَعلي فوق أهلك وكلِّ شعبك وبيت أبيك. في هذا أعطاها الله نعمةً فائقةً، إذ ولدت المسيح. هذا ما لم تصنعه امرأةٌ أخرى، فقط والدة الإله تميَّزت بهذا الحدث. لأن الله لن يتجسد ثانيةً ولن يعوزه أن يتجسد. فجسدُه الذي يعطينا إياه في كلِّ قداسٍ، نغتذي منه قادرٌ أن يخلصنا وليس بمحتاجٍ إلى جسدٍ آخر. حياتُه امتدت إلى العذراء، والعذراء تلقَّفت صفات هذا الإله المتجسد وأعطتنا مثالاً بدورها حتى نماثلَها نحن ونتعلَّمَ كيف نُصغي. كيف نطيع كلمة الله كيف ننشدُّ إليه وننسى كلَّ تراثنا وأحقادَنا ومشاكلَنا وأهواءنا، ننساها لكي نصبح في طاعةِ هذا الذي يدعونا بالكلمة. وعند ذاك نصبح جديرين بهذا الصفاء، بهذه التنقية، بهذا المثال وندخل مع المسيح في خدره السماوي، حيث نتقدَّس وتتحولُ أهواؤنا وضعفاتُنا إلى طاقاتٍ عظيمةٍ لا تقاوم.

فيما نعيِّد لانتقال العذراء نحن نصنع مثالاً ودرساً صالحاً حتى نتعلَّمه. كلُّ واحدٍ منكم بمقدوره أن يحمل دور العذراء. صحيحٌ أن المسيح لن يتجسد ثانيةً لكنه يعطينا الإمكانية أن نوجِدَه بين البشر، أي أن ننقل هذا الوجود إلى الآخرين الذين لا يعرفونه. ترُى لو فتشنا اليوم بيننا نحن كمسيحيين، هل نحمل حضورَ المسيح؟ هل يليق بنا هذا الإسم؟ ترُى هل نستطيع أن ننقلَه إلى الآخرين!

فيما نعيِّدُ لرقادِك يا أمَّ الإله، نحن نتضرَّعُ إليكِ ألا تنسَيْنا نحن شركاءك في الطبيعة البشرية. لكنك في مثولِك أمام الثالوثِ القدوس وفي مشاركتِك له في الحياةِ الفردوسية، انظري إلينا بتعطفٍ واشفعي بنا، فهذا هو دأبُك، وهذه هي سيرتُك اليوم بعد انتقالك إلى السماوات، أصبحتِ أماً للكلِّ. لأنك فيما أعطيت المسيحَ جسدًا لخَّصَ الطبيعة البشرية كلَّها في جسده، فصرت أنت أماً لكلِّ الطبيعة البشرية. وكما كانت حواءُ الأولى أماً لكلِّ حيٍّ بِتِّ أنت بالحقيقة أمَّ الحياة لأنك تحملين المسيحَ وتعطينه للناس حتى يخلدوا باتحادهم معه.

فانظري إلى شعبك وأغيثيه. صحيحٌ أننا دنَّسنا أنفسنا بالخطايا وبالبعد والشقاء والأهواء التي تتحكَّم بنا، لكننا لا نيأسُ لأننا نجدُك شفيعةً حارة تسارعين بحنوِّ الأم إلينا بعطفٍ تضميننا إليك وتقدِّميننا إلى المسيح الذي لم يتعوَّد أن يَرُدَّ لك طلباً. فأنت ملكةُ السماوات والأرض وإليك تتَّجه قلوبنا وعقولُنا خاصةً في هذا اليوم، فاحمليها واجعليها مجنحةً تطيرُ نحو المسيح تعبِّرُ له عن حبِّنا وعن شوقِنا لأن نتَّحد معه، فمتى يأتي ويُنجِدُنا فنخلص، آمين.

الأرشمندريت المتوحّد بندلايمون

رئيس الدير